عينة للقراءة من رواية

فاطمة أيديمير

الجنُّ

ترجمة أميرة أمين

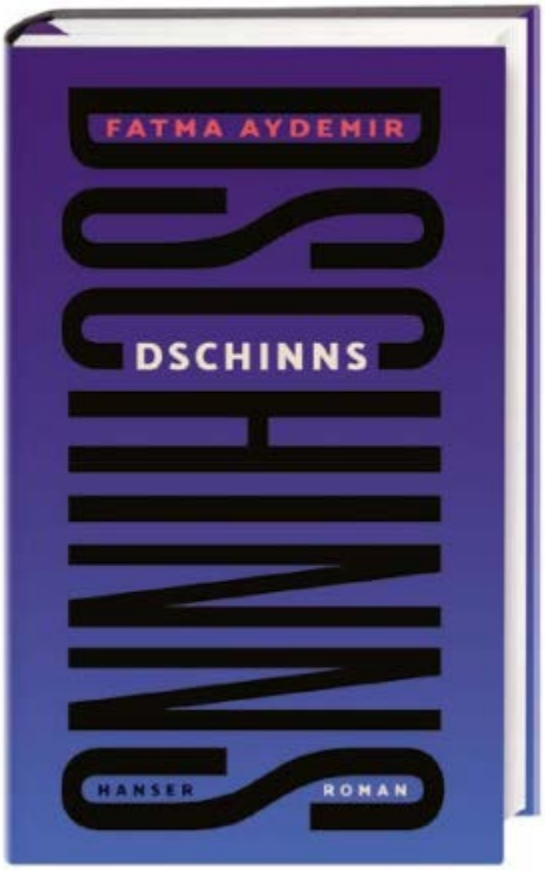

يمكن الاطلاع على مزيد من المعلومات عن الرواية على الموقع الإلكتروني

www.hanser-literaturverlage.de

تم النشر عام 2022 عن دار كارل هانزر (ش.ذ.م.م)، مدينة ميونخ

HANSER

C
H
V

فاطمة أيديمير

الجنُّ

رواية

Hanser

تتوجه الكاتبة بالشكر لمجلس الشيوخ بولاية برلين
لما منحوها إياه من منحة للعمل ومقر إقامة في فيلا أوروورا

الطبعة الأولى عام 2022

رقم الإيداع 978-3-446-26914-9

تم النشر عام 2022 عن دار كارل هانزر (ش.ذ.م.م)، مدينة ميونخ

الغلاف: بيتر أندرياس هاسيبن – ميونخ

تنضيد وتنسيق: زاتس فور زاتس بمدينة فانجن إم ألجوي

طباعة وتغليف: شركة سي.بي.أي. (ش.ذ.م.م)، مدينة ليك

تمت الطباعة في ألمانيا

MIX
Papier aus verantwortungs-vollen Quellen
FSC® C083411

إلى ر.

... الصور التي لم نرها مطلقًا قبل أن تولد في الذاكرة

فالتر بنيامين

حسين ... هل تعرف من أنت يا حسين، بينما تميز انعكاس ملامح وجهك اللامعة على زجاج باب الشرفة؟ بينما تفتح الباب وتدلف إلى الشرفة ويربت الهواء الساخن على وجهك؟ بينما يلتمع ضوء الشمس الآفلة بين أسقف المربعات السكنية في حي زيتون-بورنو كبرتقالة ضخمة؟ تفرك عينيك. تفكر أنه ربما .. يبدو أن السبب وراء كل عقبة وكل تصدُّع في هذه الحياة هو أن يحين الوقت لتقف هنا في الأعلى، ولتدرك ذلك وتقول: لقد استحققت ذلك. بكدي وعرقي.

تسمع أذان المغرب لأول مرة في شرفة شقتك، شقتك الفسيحة ذات الثلاث غرف بالإضافة إلى غرفة المعيشة، الواقعة في الطابق الرابع، تلك الشقة التي عملت في سبيلها لمدة ثلاثين عامًا تقريبًا وادخرت المال، بينما تربي أربعة أطفال وتوفر لزوجتك حياة مقبولة، صحيح أنها كانت متواضعة، لكن لم تعاني من العوز. لقد قضيت أيام عملك في ورديات ثلاث يا حسين، عملت أيام الأحد كلها، وأيام الجمعة كلها والساعات الإضافية كذلك. حاولت أن تستفيد من كل العلاوات المتاحة في مصنع المعادن، لتنجو بالأسرة وتشتري لولدك الصغير حذاء كرة القدم وتسدد ديون الكبير، ولتدخر بعض المال.

والآن، ها أنت قد حققت ذلك أخيرًا. تبلغ التاسعة والخمسين من عمرك، وتمتلك شقة. عندما ينهي أوميت مدرسته خلال بضع سنوات، وتستطيع أن تترك ألمانيا أخيرًا، ذلك البلد البارد منزوع القلب، فها هي الشقة هنا في إسطنبول، واسمك مكتوب على لوحة أمام الباب. حسين، لقد وجدت أخيرًا مكانًا يمكنك أن تسميه بيتك.

استمتع بذلك يا حسين. اسمع كيف سكن فجأة صوت الموسيقى الصاخبة المنبعثة من المتاجر في الشارع أسفل منك، ولم يعد هناك سوى صوت الأذان والأبواق وملايين البشر الذين يهدرون عبر الشوارع ساعين في أعمالهم. أنصت إلى صياح طيور النورس. املأ صدرك بنسمات الهواء الرطب التي تحمل في طياتها شيء من العوادم المتصاعدة ودخان القمامة المحترقة. ولبضعة دقائق أخرى دع بصرك يتابع في هدوء ذلك الصخب الدائر بين المنازل في الأسفل قبلما تتوجه إلى الصلاة.

انظر، لقد افتتحوا قبالتك فرعًا من سلسلة مطاعم إبراهيم تاتليس لوجبات اللحمجون. كنت تفضل أغنيات إبراهيم تاتليس في السابق يا حسين، واشتريت إسطوانة له من قبل، كنت تجلس كل ليلة في بيتك وتفتح زجاجة بيرة مصنعة من القمح، تصدر قعقعة نزع غطاء الزجاجة ويليها حفيف مشغل الاسطوانات. وينساب في البداية صوت آلة الساز قبلما تنبعث نغمات أغنية توكندي ناكدي أومرون.[1] أتذكر يا حسين أنك دخنت الكثير من السجائر وأنت تستمع إلى هذه الأغنية، لدرجة جعلت جسمك يتحلل إلى سحابة وحيدة من الدخان الأبيض

[1]ترجمة اسم الأغنية بالعربية: حياتي بلا نقود. المترجمة

في مطبخ البيت الضيق في نهاية الرواق، ذلك الرواق الطويل المعتم؟ استشعرت كلمات إبو [2] لأنه عبر في أغنياته عن كل الناس الذين لا يعيرهم أحد اهتمامًا، أولاد البلد الفقراء داكني البشرة الكادِّين في عملهم، يغني لمن هم مثلك يا حسين. استشعرت أغنيات إبو لأنه تخلص كذلك من لغة آبائه كمن يلقي بجوال مليء بالحصى غير ذي نفعٍ.

لكنك لم تعد تتحمله بعد ذلك، بل صرت تبغضه بعدما صار يظهر مساء كل يوم جمعة في برنامجه التليفزيوني، يتململ في وقفته ويتحدث حديثًا تافهًا ويلتهم الراقصات بعينيه. هذا الرجل عديم المروءة الذي أمر بقتل تاجر بسيط بالرصاص في سوق مدينة أورفة لأنه لم يقبل أن يخدمه، أو هذا ما كُتب عن الحادث في الصحف على كل حال.

لا يا حسين، مع كل الحب، لكن هذا الرجل ليس من ذلك النوع من البشر الذي ترغب أن تشتري شرائطه وتستمع إليها. كما أنه تحول من الموسيقى الشعبية إلى موسيقى الأرابيسك ، وأنت قد أقلعت عن الكحول والتبغ منذ وقتٍ طويل. وفن الأرابيسك هذا لا يمكن احتماله حقًا دون كحول. وحتى لو افترضت أنك تسمعه، ما الذي يمكن أن تقدمه لك أغنيات مثل هذا الرجل؟ رجل يضرب نسائه، بل ويتباهي بذلك في العلن. لا شيء في الحقيقة. لكن على الرغم من ذلك سوف ينال المطعم إعجاب بريهان وهاكان وأوميت بالتأكيد، فالمطعم يمكله الرجل الأشهر في البلاد، وأنت يا حسين لن يكون في إمكانك الاعتراض عندما يهرع الأولاد كل يوم إلى هناك ليملأوا بطونهم بتلك المأكولات عديمة القيمة.

بل على العكس من ذلك، ستشتري لهم الطعام بنفسك وتجلس تتأملهم في سلام وتملؤك السعادة لأنك استطعت أخيرًا أن توفر لهم من هذه اللحظة الفرصة لقضاء الصيف في إسطنبول، هذه المدينة الفخمة، التي اندلعت من أجلها حروب كثيرة منذ قرون، وأُريقت في سبيلها الدماء، لكن دون جدوى. لأن أحدًا لم يدرك أن هذه المدينة عصيَّة على الغزو، مهما كان الغازي، بل إن المدينة في النهاية دائمًا ما تغزوك أنت من داخلك، في النهاية لن تصبح سوى طبقة أخرى من الغبار على الأرض تطؤها أقدام غزاة جدد تملؤهم نفس الأطماع، ولسوف تلتقمهم إسطنبول وتبتلعهم في داخلها وتحيلهم إلى غبار ومن ثم تتغذى عليهم وتواصل نموها حتى تصير على تلك الهيئة الفخمة المتوهجة.

لقد أيقنت يا حسين أنك ستعود يومًا ما إلى إسطنبول، كان ذلك بعد أول مرة وطأت قدماك هذه الأرض. لقد أتيت حينها من القرية مستقلًا القطار، ووبقيت هنا في إسطنبول أسبوعًا لدى أقاربك قبل أن تستقل الحافلة ثم القطار إلى جنوب ألمانيا لتلتحق بالعمل هناك.

[2] يقصد اسم تدليل لإبراهيم تاتليس. المترجمة

أوقفوك مع صف من العمال وفحصوا أجسادكم العارية ونظروا إلى داخل سراويلكم الداخلية. كان ذلك في ربيع عام 1971.

لم تكن ألمانيا في الحقيقة بالصورة التي تمنيتها يا حسين. لقد كنت تأمل في بناء حياة جديدة، لكنك لم تجنِ سوى الوحدة، تلك الوحدة التي لا يمكن أن تكون نواة لحياة جديدة، لأن الوحدة ليست إلا حلقة مفرغة، هي التكرار المستمر لنفس الذكريات في الرأس، هي البحث عن جراح جديدة دومًا في تلك الأنا الزائلة منذ زمن طويل، هي الحنين إلى الذين تركتهم خلفك. ماذا عساك كنت ستفعل يا حسين؟ لم تستطع أن تعود هكذا ببساطة إلى قريتك. لذلك بقيت وقمت بما توجب عليك القيام به، حتى يكون رحيلك على الأقل ذو معنىً.

ما أعجب مرور الوقت يا حسين. لقد جنيت طوال الثماني وعشرون سنة الأخيرة من عمرك مالًا أكثر مما كان يمكنك أن تحلم بتحقيقه في تركيا. لكنك استحققت هذا المال لأنك لم تكن تحتقر القيام بأي عمل يرفض أي ألماني القيام به. لكنك لم تتوقع أن جسدك هو الآخر من ذلك النوع الذي سيصاب بالإرهاق قبل سن المعاش بزمن، مثله مثل الاقتصاد الألماني بعد نقطة التحول. في تلك اللحظة التي تزامن فيها ما أصابك من إنهاك مع ما أصاب الاقتصاد الألماني، تلك اللحظة التي أُغلق فيها مصنع المعادن، أردت لو أنك فعلت مثل معظم زملائك وتقاعدت، لكنهم للأسف لم يعطوك شهادة طبية تعينك على ذلك، على الرغم من أن تلك السنوات التي قضيتها أمام فرن الإذابة قد أصابت ظهرك بالتقوس فصار يشبه القوس المقلوب من الداخل، ومن أنك بدأت تشعر بألم رهيب في ركبتك لمجرد التمشية لفترة قصيرة.

لكن كل ذلك كان له ما يبرره يا حسين، وإلا كيف كنت ستعيش أنت وأبنائك الثلاثة في ذاك الوقت بمعاش لا يتجاوز التسعمائة مارك؟ من مدخراتك؟ هل كنت تريد حقًا التنازل عن تحقيق حلم الحصول على هذه الشقة يا حسين من أجل فقط أن تركن إلى الراحة قبلما فعلت ببضع سنوات، ويرتب على ذلك أن تظل بقية عمرك في ألمانيا؟ بالطبع لا يا حسين. لذلك انتقلت إلى مصنع آخر نظير أجر وعلاوات أقل، لكن على كل حال كان هذا الدخل كافيًا لزيادة حجم المدخرات إلى القدر المطلوب، مع زيادة قيمة المعاش. وبعد كل تلك السنوات الطويلة التي قضيتها في صهر بواقي المعادن في درجة حرارة 1500 درجة، لا يمكن أن يُعد طي الكرتون عملًا حقيقيًا بالنسبة لك. لذا فقد كدحت مرة أخرى على مدار خمس سنوات أخرى يا حسين، حتى حانت اللحظة العام الماضي التي طلبت فيها من مديرك في مصنع الكرتون، بشكل شخصي- بحت وبمنتهى التهذيب، أن يقبل استقالتك من العمل. وحينما استجاب لطلبك صار لديك أخيرًا الوقت لتبحث عن شقة في إسطنبول. أخيرًا صار لديك وقت

تخصصه لإيمانك الذي ذبُل أمامك كوردة لم تسق لسنوات عديدة. صار لديك الوقت لتستمع لصوتك الداخلي وأن تُبرم سلامًا مع الجن المصاحب لك. والأسبوع القادم، عندما تبلغ الستين من عمرك، يحين وقت التقاعد كما تراه أنت يا حسين. إنهم يسمونه التقاعد المبكر، لكنك تشعر أن لا شيء مبكر في كل ذلك.

ما أعجب مرور الوقت. من يدري، ربما لا تعود إلى ألمانيا مرة ثانية مطلقًا، ربما تبقى هنا وينتهي الأمر. ربما ترغب أمينة وأبناؤك في البقاء كذلك، إذا ما أتوا إلى هنا مرة، ورأوا كيف أعددت لهم الشقة بهذا الجمال. ربما يكمل أوميت مدرسته هنا. وربما يقعا بريهان وهاكان في الحب هنا ويرغبان في الزواج في النهاية. إنك ترتجف من هذه الفكرة يا حسين، لماذا إذن؟ ألم تكن أنت الذي تعجَّلت تسليم ابنتك الكبرى سيفدا، ذات السبعة عشر عامًا ونصف، إلى رجل كان بمثابة الإنذار الأخير لها. قلتم لها في ذلك الحين: يمكنك أن تتزوجي هذا أو ذاك، هذا قرارك، لكن المهم أن تأخذي واحدًا منهم وأن تبني أسرة. على الأقل لم نعد مضطرين بعد ذلك إلى الاهتمام بشأنها وبما تفعله الحياة في ألمانيا بابنتنا، ابنتنا سيفدا التي طالما رغبت في المزيد والمزيد من الحياة، التي لم ترض يومًا بما تمكله أو ما تستطيع الوصول إليه. ألم يكن ذلك تصورك يا حسين عن تأمينها؟ ألم تكن تلك فكرتك التي قتلت أحلامها؟

لكن لا تقلق يا حسين يا مسكين، إن سيفدا حققت ما أرادت. حققت ما أرادت على الرغم من أنها تحمل طفلين على كتفيها. ألا ترى ذلك؟ والآن حان دور القلق على بريهان وهاكان. لابد أنك أدركت منذ وقت طويلٍ يا حسين أن قلقك على أبنائك نادرًا ما يقودك إلى قرارات صائبة. نعم، ها أنت تبتسم يا حسين. من حقك أن تبتسم، فها أنت تعيش أخيرًا يومًا سعيدًا، بل ربما هو أفضل يوم في حياتك.

لقد وصل الأثاث بالكامل. صفَّه الرجال تبعًا لرغبتك؛ المرآة والفراش الكبير الثقيل لك ولأمينة في الغرفة الخلفية، والأرائك المنقوشة القابلة للطي للأطفال في غرفتي النوم الصغيرتين. ويوجد في غرفة المعيشة بوفيه منقوش من الخشب الداكن المصقول، تمامًا كذوق أمينة. أنت متأكد من أنه سينال إعجابها.

أمينة التي أحببتها منذ أن رأيتها أول مرة في قرية مجاورة. كنت عائدًا يومها لتوِّك من الخدمة العسكرية، أرعن ومكسور بعض الشيء، وهنا مرت فجأة من أمامك في الزقاق هذه الفتاة الصبية ذات الرأس المنكَّس، بيضاء كبرعم زهرة القطن. وفي اليوم التالي مباشرة ذهبت لطلب يدها من عمتها للزواج، لأني والديَّ أمينة كانا قد توفيا منذ فترة في ذلك الوقت. حاولت عمة أمينة أن تكتم ابتسامتها لأنها لم ترد أن تظهر فمها الخالي من الأسنان، ومع ذلك لم تفلح أن

تخفي سـعادتها الجمَّة لأن الأفواه التي يتوجب عليها إطعامها سـتنقص واحدًا منذ تلك اللحظة.

مر على هذا الحدث ثلاثة وثلاثون عامًا، طالما أحببت أمينة، أكثر من نفسك. حتى السنوات التي قضيتها في ألمانيا بمفردك بعيدًا عنها، كنت دائم التفكير فيها، وكنت ترى كل ليلة في أحلامك أنك سافرت عائدًا إليها، بحنين إلى رائحة ماء الورد التي تدلكها صباح كل يوم خلف شحمتي أذنيها، إلى تلك البرودة التي يحتفظ بها جلدها حتى تحت غطائين ثقيلين. لم تستطع امرأة ألمانية واحدة من اللاتي قابلتهن في تلك الحانات الواقعة على النهر طوال تلك السنوات الثمانية أن تطفئ شوقك إلى أمينة. على العكس من ذلك، كلما اقتربت من نساء أخريات، ازداد شوقك إلى أمينتِك اتقادًا.

كان ذلك حتى تمكنت أخيرًا من جلبها مع الأطفال إلى ألمانيا، وها قد صار للانتظار نهاية. ثم انتقلتما إلى تلك الشقة المظلمة الواقعة في الطابق الأرضي من تلك البناية الصفراء المرتفعة القريبة من المصنع. لم يقطن تلك البناية حينذاك إلا الأتراك والإيطاليون وأرملة ألمانية عجوز. استطعتما أن تحققا أفضل شيء من كل شيء. أرسلتما أطفالكما إلى مدارس أفضل مما كان يمكن أن تسمح به الظروف في وطنكما. منحتما كل ما تملكونه للجميع، ربما عدا سيفدا. لكن الطفل الأول كذلك دائمًا، محل تجربة. ماذا بإمكانك أن تفعل؟ البشر يرتكبون الأخطاء ثم يحسنون من أنفسهم في المرة التالية. أليس كذلك يا حسين؟ هكذا الأمر مع الأول، مع أول كل شيء.

والآن يا حسين، ها أنت تنتظر أمينة مرة أخرى، لكن اليوم هي في ألمانيا وأنت في تركيا. سوف تأتي الأسبوع القادم ومعها هاكان وبريهان وأوميت الصغير الذي حانت إجازته الصيفية أخيرًا. لقد سافرتَ مبكرًا خصيصًا من أجل إعداد الشقة. كما نسقت حليمة باجي، الجارة اللطيفة بالأسفل، موعدًا مع سيدة تنظف الشقة يوم الأحد، لتعيد تنظيف كل شيء مرة أخرى بعناية.

يقع بصرك على المطبخ يا حسين، حيث يقودك إليه باب شرفتك الثانية. ترى هناك لفافة من ورق الجرائد داخلها بعض المشمش، أحضرتها حليمة باجي لك بعد الظهيرة. أنت محظوظ بالحصول على هذه الجارة الخدوم المحترمة يا حسين. مثل هذا الأمر لم يعد بديهيًا هنا أيضًا منذ زمن بعيد.

صحيح أن الأذان قد انتهي بالفعل، لكن لا ضير أن تصلي اليوم متأخرًا خمس دقائق يا حسين. لذا تفتح الباب وتدلف إلى المطبخ وتفض لفافة الفاكهة، وتترك الماء الفاتر ينساب فوقها.

تترك باب الشرفة مفتوحًا حتى تتسرب الرائحة المميزة للأثاث الجديد إلى الخارج. المشمش متخمر بعض الشيء، وأنت تحبه هكذا، مذاقه مسكر ولين كالعجين.

تأكل حبة ثم أخرى، تريد أن تسرع حالًا إلى دورة المياه يا حسين حتى تستعد للصلاة، فتقرر الآن ألا تغسل أصابعك المدبقة في المطبخ وأن تذهب مباشرة إلى دورة المياه، حيث ستغسل بطبيعة الحال يديك ووجهك وذراعيك ورأسك وأذنيك ومؤخرة عنقك وقدميك. تأخذ من فورك أول خطوة خارج المطبخ إلى الرواق، فتشعر في نفس اللحظة بوخز حاد في ذراعك اليسرى.

تتساءل إن كنت قد تحاملت على نفسك منذ قليل عندما ساعدت عمال نقل الأثاث في حمل الأريكتين وأرائك النوم عبر الرواق، على الرغم من أنهم رفضوا مساعدتك في امتنان، لكن الأرائك ليست ثقيلة إلى هذا الحد. لم يذهب الألم بل ازداد حدة أكثر وأكثر. تشعر بهذا الوخز كأنه فأس تشق لحمك يا حسين.

يندفع عرق الخوف إلى مؤخرة عنقك. لم يختبر جسدك هذا النوع من قبل. فجأة يضيق قفصك الصدري بشدة وكأن نصفك العلوي بأكمله يتقلص حتى لم يعد حجمه يتجاوز حجم زر. تظل واقفًا على الرغم من ذلك يا حسين. تقف مكانك وتضم ذراعيك حول صدرك وكأنك تحتضن نفسك. يجب أن تجلس. تخطو خطوتين في اتجاه غرفة المعيشة، حيث منضدة الطعام الجديدة وحولها الكراسي المكسوة. لكنك تشعر فجأة مع هاتين الخطوتين بغثيان يدفعك إلى الذهاب سريعًا إلى دورة المياه، لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك الآن، فينحني جسدك إلى الأمام وتتقيئ في منتصف ردهتك أمام باب غرفة المعيشة.

تسعُل وتركع على ركبتيك وتصرخ بأعلى صوت تملكه مناديًا على جارتك حليمة باجي. تطرق بكلتا يديك على الأرض، دون أن تعرف أصلًا إن كان هذا الطرق مسموعًا. يدور بك الكون، فتمرُّ عيناك على فضلات قطع المشمش على الأرض المصنوعة من خشب البلوط. يحاول جسدك النهوض والاعتدال، لكن لا يستطيع يا حسين. كل شيء شاق للغاية، شاق إلى أقصى درجة، ضيق إلى أقصى درجة. تملأ قفصك الصدري التشنجات، وبينما تصيح مناديًا على حليمة، تدفع جسدك إلى أعلى فتفقد توازنك وتتداعى على الأرض فوق فضلاتك.

ترفع رأسك إلى أعلى بكل قوتك، وتصرخ وأنت تحارب حتى تلتقط أنفاسك، تصرخ مجددًا، وفجأة تسمع صوت حليمة باجي في ساحة المنزل، تسمع صوت نعلها وهي صاعدة إليك على درجات السلم الحجرية. حينئذٍ يختفي تقلص نصفك العلوي في ثانيتين. تتمكن بطريقة ما في هاتين الثانيتين من رفع ذراعك إلى مقبض الباب وفتح باب غرفة المعيشة، لكن التقلص

يعاودك ثانيةً وبقوة أكبر. ألمٌ قوي وحاد كما لم تشعر به من قبل. تطلق صرخات وقعها غريب على سمعك بشكل يصعب عليك تفسيره لنفسك. لا بد أن الصرخات آتية من الخارج، من المستحيل أن تكون أنت مصدر هذه الصرخات.

ترى وجه حليمة باجي الطويل البيضاوي المذعور فوقك. لا تفهم ماذا تقول، لكن وجهها يرتعش، مرتعب وشاحب. إنها مرآة يمكن أن تستدل من خلالها على الحالة التي أنت عليها يا حسين.

تصير فجأة الفكرة الهلامية الضبابية التي تملأ رأسك جلية تمامًا؛ إنها النهاية. الختام. ستغادر. إذن أنت تموت، وسط فضلات القيء المعجونة، في الشقة التي طالما حلمت بها طوال حياتك. تموت هكذا ببساطة، دون أن ترى بريق عيني أمينة عندما تدلف داخل الشقة لأول مرة، دون أن تبصر حماس الشباب على وجوه ابنتك الصغرى وابنيك. لن تدرك أيًا من ذلك في أي وقت، لن ترى ردة فعلهم على الأثاث الذي اخترته بنفسك ولا الحي المزدحم، ولن تعرف رأيهم في إسطنبول التي يعرفونها فقط من البطاقات البريدية، ومن زيارة أو زيارتين قصيرتين في طفولتهم، وبالطبع من التلفاز.

إنهم في الحقيقة مثلك تمامًا يا حسين. لماذا تريد الآن العودة إلى إسطنبول؟ ماذا عساك تعرف عن هذا المكان؟ هل هذا هو حقًا المكان الذي طالما اشتقت إليه أم أنها مجرد ذكرى؟ ذكرى للفرار من الوطن، للتوقف القصير أمام المصنع، للمكان الذي لم يعد مرتبطًا بالنسيان ولا بالعمل أخيرًا، المكان الذي استطعت لأول مرة أن تلتقط أنفاسك فيه.

تريد التنفس يا حسين، لا تريد الموت، ليس الآن، على الرغم من أنك رجل مؤمن، على الرغم من أنك قلت دومًا أنك مستعد للقاء عزرائيل في أي وقت. ربما تظن الآن أنك كنت تأمُل سرًا أن يضمن لك إيمانك حياة طويلة بصحة جيدة. كم كنت ساذجًا يا حسين. أنت لست مستعدًا. لا يمكن أن يئول الأمر إلى هذه النهاية. ليس بهذه الطريقة. لو لم يكن لسانك ثقيلًا كالرصاص، وفمك ملوٍ من الألم الذي يعتمل في داخلك ويحتدم كنيران شديدة مارقة أُشعلت للقضاء على كل أشكال الحياة، كنت ستصلي إلى الله، ستتوسل إلى عزرائيل، أيًا كان جنسه، أن يمنحك أسبوعًا آخر، رجاءً، أسبوعًا واحدًا فقط، فترة عفو لتستطيع أن تفتح باب الشقة الذي أمامك الآن لأسرتك الحبيبة وتقودهم عبر تلك الغرف المضيئة. هذه غرفة نوم هاكان وأوميت، وهذه غرفة بريهان، وهذه غرفة المعيشة، وهنا شرفتنا، وهناك شرفة أخرى ملحقة بغرفة نومي أنا وأمينة. أسبوع واحد فقط لتذهب معهم في تمشية على الماء، لتشتري لهم الشاي، لتمسك بيد ابنتك وتقول لها كم تحبها، وتقول لولديك أنك فخور بهما، لتتصل بسيفدا وتطلب منها الصفح، لتسمع أصوات حفيديك اللذَين تشتاق إليهما منذ سنوات. بل

ربما تحتاج إلى أكثر من أســبوع قليلًا. لقد أقلعت عن التدخين منذ زمن يا حســين، وهذا من شــأنه أن يطيل العمر، فكيف بك تموت الآن بســبب أزمة قلبية دون غيرها، وتُفوِّت كل ما سيحدث هنا في هذه الشقة، في شقتك؟

تُجهد عينيك يا حسـين، تفتحهما عنوةً على اتسـاعهما، تتطلع حولك. تذهب حليمة باجي ثم تعود ثانيةً. تدرك أن حليمة اتصلت بسـيارة الإسـعاف. تتوسـل حليمة إليك أن تصـمد بعض الشيء، تمسح على وجهك بقطعة قماش مبللة. تمررها باردة كالثلج على جبهتك وأنفك وزوايا فمك المرتجفة. تشــعر للحظة وكأن ثقبًا انفتح في قلبك، ثقبًا ابتلع كل الألم، فغرق فيه واختفي.

تعرف يا حسين أن هذا السكون سيستمر لدقيقة، تعرف أن الألم سيعود بعدها، الآن سيعود الألم. لا يمكنك أن تفسرـ الأمر، من أين لك بهذه المعرفة، من أين تعرف هذا بالضـبط، لكن تعرف أن التقلص التالي سيأتي حتمًا، وسيكون بشـعًا في قوته، سيحملك بعيدًا عن هنا. تعرف ذلك. إذن فلتستغل هذا الفراغ الكبير في قفصك الصدري، لتستغل آخر خيط من قوة داخلك لتحرك شــفتيك. تنظر إليك حليمة المذعورة الممتقعة في تســاؤل، تقرب أذنها من فمك لتسـتطيع أن تفهم ما تريد قوله بشـكلٍ أفضـل. تغمغم بكلمة، فتسـألك حليمة: "ماذا تقول؟ ماذا تقول؟" لكنك لا تسـتطيع التلفظ بأي شيء ثانية. ترى انعكاس ظل على الحائط وتشـعر بقطرات العرق البارد على مؤخرة عنقك، لكن لا تخف يا حسـين، هذا الظل ليس إلاي. أعدك أنني سـأظل هنا، في هذا البيت، في شـقتك، وسـأرعى أسرتك عندما تصـل إلى هنا. هذا وعدي لك يا حسين، أعدك. لكن بالنسبة لك فقد حان وقت رحيلك، وهو شيء لا يمكن لأحد ولا أنا كذلك أن نغيره.

لا تخف يا حســين، تعال. تنفس. خذ شــهيقًا قصــيرًا بمقدار الهواء الذي تحتاجه فقط، حتي تســتعيد ســيطرتك على نفســك، لتهمس بكلماتك التي ادخرتها طوال حياتك لهذه اللحظة، ومع ذلك لا تريد التلفظ بها لأنك لا تريد الاستسلام بعد. لكن الأمر لم يعد بيدك، لم يعد أي شيء بيدك يا حســين، لذا يجب عليك أن تفعل ذلك قبل أن يفوت الأوان. تتنفس لتتحرر، لتقرر أن الوقت قد حان لتتحرر. تلتقط أنفاسك وتهمس "أشهد أن لا إله إلا الله ..."